الفروق السيكلوجية
بين الأفراد
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

(تابع)

كان كوينتليان[1] Quintilian الرومانى ـ معلم البيان ـ بيئيّ المذهب Environomentalist . فكان يعتقد أن الفروق السيكلوجية بين الأفراد ـ وبخاصة العقليـة والخلقية منها ـ هى من آثار البيئة . وكان يرى أن التربية تمحو هذه الفروق أو تقلل من أهميتها . وقد بنى رأيه هذا على تجاربه فى إعداد خطباء الجماهير . وهو يميل إلى أن التمرين قد يعوض على الفرد ما قد حرمته الوراثة . وهو يقول فى كتابه « معاهد الخطابة » Institutio Oratoria ما يأتى :

« على الوالد أن يفكر منذ ولادة طفله فى أفضل مهنة يريد إعداده لها . لأنه بتفكيره هذا يكون قد وضع نصب عينيه الغاية التى يريد تنشئته لها ، فينمو بذلك نشاطه ، وتشحذ جهوده فى تقويمه وتسويته من طليعة حياته . وإنه لزعم واهٍ أن يقال : إن قليلاً من الأفراد قد وهبوا الذكاء والقدرة على فهم ما يلقى إليهم ، وإن الجمهور من الأفراد يضيع جهدُه ووقته سدى بسبب قلة الذكاء وبطء الإدراك . فالحقيقة تناقض هذا الزعم . لأننا نجد السواد الأعظم من الأفراد قابلاً للإدراك سريع التعلم ، ولأن سرعة التعلم ميزة من ميزات الإنسان . ونحن البشر خُصِصْنا بالنشاط والفهم الحكيم ، لأن عقلنا قد نزل من السماء وقل من الأفراد من يولد غبياً أو غير قابل للتعليم ، كما قل من الأفراد من يولد ممسوخ الخلق مشوه الشكل . ويؤيد رأيى هذا أننى أرى بذور الذكاء كامنة فى نفوس الكثير من تلاميذى ، وقد تموت هذه البذور بمرور الزمن . ومعنى ذلك أن ظهور الذكاء وتفتحه رهن بالعناية والتمرين لا بوجود المقدرة الطبيعية فقط . ولعلك تعترض فتقول إن تفوق فرد على آخر إنما هو لما امتاز به الأول من مقدرة طبيعية . وإننى أسلم بذلك ، ولكن هذا التفوق لا يُعترف به إلا إذا كانت المقدرة الطبيعية عملية محسوسة منتجة ، كما أنك تسلم معى أن من جَدَّ وجد . فعلى من اقتنع بصواب رأيى هذا أن يسارع بمجرد أن يصبح أباً ، فيفكرَ فى مستقبل ابنه ، وماذا سيكون ، فيعمل لذلك المستقبل بحرص وعناية ويقظة » .

ونحن وإن سلمنا بأن كوينتليان من أنصار مذهب البيئة لا يسعنا إلا أن نثبت له أيضاً أنه يعترف بوجود الفروق السيكلوجية الموروثة بين الأفراد . فهو إذاً يقر بالفروق السيكلوجية الفطرية ، وبأن هذه الفروق يمكن إزالتها بالتربية والتمرين

وفى عصر النهضة أخذت دراسة الفروق السيكلوجية بين الأفراد اتجاهاً جدياً فى المدارس الإيطالية ، وعنى المعلمون بها فى توجيه تلاميذهم إلى نوع العمل أو الدراسات التى تصلح لهم

ويعتبر فيتورينو دافلترى Vittorino da Feltre الذى عاش فى القرن الخامس عشر أول مدرس بيداجوجى بحق . كان ناظراً لمدرسته ومدرساً بها . وقد اهتم بمعرفة الفروق السيكلوجية بين تلاميذه واكتناه أسبابها ، وكيفية استغلالها فى تكوين شخصيتهم . درس ولاحظ ميول تلاميذه الطبيعية المختلفة ، ومظاهر هـذه الميول ، وقد رائهم الفطرية . وكان يضع لكل تلميذ منهجاً دراسياً خاصاً ، ويتخذ أيضاً طريقة للتدريس خاصة تتفق وقواه العقلية وذوقه . وهو يقول فى هذا الصدد « ليس كل فرد صالحاً لأن يكون قانونياً أو طبيباً أو فيلسوفاً محترماً باقى الذكرى بين الجمهور ، وليس كل فرد موهوباً نعمة الذكاء الطبيعى » .

ونحن نجد مما سقنا عن فيتورينو أنه لم يكتف بمعرفة الناحية النظرية من الفروق السيكلوجية بين الأفراد بل طبَّق هذه المعرفة فى مدرسته ، بل لقد بالغ وأسرف فى تطبيق نظرية الفروق السيكلوجية ونتائجها . فكان لا يتردد فى أن يطرد من مدرسته أى تلميذ يرى أنه سيء الخلق . كما كان فى كثير من الأحيان يفصل البلداء ، أو من تخلف ذكاؤهم بعد سبق

وفى القرن الثامن عشر سادت أوربا حركتان عقليتان فى فلسفة التربية : الحركة التعقلية التى تعزز من شأن العقل وحده

(١) هو Marcus Fabius Quintilian ولد سنة ٣٥ ومات سنة ٩٥ م

وتدعو إلى الثقة بما يوحى به ، والحركة الطبيعية وهى التى تجعل للميول والعواطف المحل الأول فى شؤون التربية والاجتماع ، والتى تدعو إلى أخذ الطفل بما يوافق طبائعه ويلائم ميوله ورغباته . وتدعو هذه الحركة إلى إعطاء الطفل أكبر نصيب مستطاع من الحرية لتنمية غرائزه الصالحة وقواه المنتجة النافعة . وزعيم هذه الحركة هو جان جاك روسو[1] . وقد كانت رسالته فى التربية (إميل) ثورة على نظريات التربية القديمة التى كانت تحول بين الطفل وبين نمو غرائزه ، وتحد من نشاطه العقلى وتقيده بآراء دينية واجتماعية تقليدية

جاء روسو منادياً بتقوية الفردية Individualité ، وبتشجيع الغرائز على إظهار آثارها ، وإزالة العوائق التى تقطع عليها طريق الحرية الكاملة . وهاك اقتباساً من كتابه (إميل) يحث فيه على تنمية المواهب الفردية وتقويتها :

« لكل طفل استعداد عقلى خاص . ووفقاً لهذا الاستعداد يجب أن يوجه الطفل . وإذا أردنا نجاحاً فى تربية الطفل وجب علينا أن نسير مع ميوله الطبيعية . كن حازماً وراقب طبيعة طفلك طويلاً ، ولاحظه بحرص وحيطة من قبل أن توحى إليه بكلمة أو إرشاد . دع أولاً بذور طبيعته تترعرع ، واحذر أن تتدخل فى نموها إلا قليلاً حتى ترى عم تتفتح براعمها » وإذاً فروسو ورائى المذهب ، لأنه يرى أن الفروق السيكلوجية — وهى التى تكون الفردية — طبيعية وموروثة ، وأن مهمة المربى هى أن يرعى ما فى الفرد — أى الطفل — من قوى ، ويراقبها ، وهو يحث المربين والكبار على « أن يحترموا الأطفال ، وألا يتعجلوا فى الحكم على أفعالهم بالخير أو الشر . وإذا كان من بين الأفراد بعض الشواذ ، فالأولى أن يتركوهم مدة من الزمن حتى تظهر نواحى شذوذهم ، ثم يعالجوهم بما يصلح لها . دع الطبيعة — يعنى طبيعة الطفل — تعمل وئيداً ، واترك لها الزمن الكافى قبل أن تستعيض عنها غيرها ، خشية أن تعطل وظيفتها النافعة »

وفى أثناء المراحل الأولى من نمو الطفل سيعرف الطفل نفسه بنفسه . ويرى روسو أنه « لا ضير أن يترك الطفل وشأنه يفعل ما يشاء ، لأنه قد عرف قوة نفسه ، ومن المستحيل أن يعمل شيئاً لا يقدر على عمله ، ولأنه لا يمكن أن يعدو حدود قدرته الطبيعية ، وهو يعرف تماماً ما هى » .

ومعنى هذا أن روسو يترك للطفل كامل حريته حتى تنمو فيه الصفات المكونة لفرديته ، والتى تميزه عن غيره . فالفروق السيكلوجية إذاً نتيجة للنمو الحر للخواص الطبيعية الموروثة عند الأفراد .

ولكن رجال التربية الحديثة لا يشاركون روسو فى هذا النوع من التربية المطلقة ، لأنهم لا يثقون بتعليم الطبيعة وقيادتها وحدها ، ولأنهم يخشون إن تركت الغرائز الفردية والميول الطبيعية حرة ، أن تسلك الطريق المعوج كما تسلك الصراط المستقيم . وهم يعللون ذلك المذهب البيداجوجى الذى اعتنقه روسو ونادى به بأنه رد فعل للروح الاجتماعية والتربيوية التى كانت سائدة فى عصره والتى قيدت النمو السيكلوجى الطبيعى للأطفال .

وكل ما يهمنا من مذهب روسو فى هذا البحث هو أن نسجل أنه فطن كغيره من الفلاسفة والمربين الذين ذكرناهم فى هذا المقال وسابقه ، فطن إلى الفروق السيكلوجية عند الأطفال وإلى ضرورة تنمية الفردية وتربيتها عند الأطفال

هذا وقد أصبحت الفروق السيكلوجية بين الأفراد من الحقائق المسلم بها بين المربين وعلماء النفس المعاصرين ، وهم يوصون بأن تكون مناهج الدراسة وطرقها مختلفة باختلاف الأفراد ، ولكن إقرار الحقائق شىء والقيام بتنفيذ مستدعياتها شىء آخر . ولا زالت هناك صعوبات مادية وعملية فى سبيل تحقيق مستدعيات الفروق السيكلوجية بين الأطفال . ففصول الشواذ والمتخلفين وطرق التربية الفردية من الأشياء التى يشعر المربون بضرورتها وإن لم يستطيعوا تحقيقها بعد فى كل معهد دراسى

(بخت الرضا . السودان) عبد العزيز عبد المجيد

(١) Jean Jacques Rousseau ولد سنة ١٧١٢ ومات سنة ١٧٧٨م